المحاضرة رقم 04: مفاهيم سردية

إن مفهوم السّرد يندرج ضمن المفاهيم المستحدثة في الساحة النقدية العربية، استعمله النقاد ليكون المفهوم الجامع لكلّ التجليات المتصلة بالعمل الروائي أو الحكائي.

تعريف السرد:

لغة : ترد كلمة (سَرَدَ) في المعاجم اللغوية العربية، في المفهوم الأول الغالب في سياق معان تفيد التوالي والاتصال والانتظام، فقد جاء في لسان العرب: أن(سَرَدَ) تفيد تَقْدِمَة شيء إلى شيء، تأتي به متسقا بعضه في أثر بعض، وسرد الحديث ونحوه بتحريك الحرف الأوسط: إذا تابعه، وفلان يسْرِدُ الحديث إذا كان جيد السياق له، وسرَد فلان الصوم إذا والاه وتابعه ، وترد كلمة سرَد، في المفهوم اللغوي الثاني، بمعنى الثقب، فتقول: سردَ الشيئ وأسْرده إذا ثقبه، والسِّراد والمِسرد والمِسراد آلة الثقب، أو المِثقب. وتطلق كلمة المِسرد على اللسان مجازا لأثره الثاقب، وخاصة عند اللجاج والخصومة والجدل، وترد كلمة سرد في المفهوم الثالث، بمعنى النسج، أي نسج الدروع خاصة، ولذلك قيل: هذه دروع مسرودة، والسرْد حِلق الدروع ، والسرْد اسم جامع للدروع وما أشبهها من عمل الحلق. قال تعالى في شأن النبي داود عليه السلام (وقدر في السرد)، سورة سبأ ، الآية 16. وقيل في تفسير هذه الآية: "ليكن عمل الدروع وسردها مقدرا، أي لا يكون الثقب واسعا، ولا المسمار غليظا، بل يكون على تقدير معلوم."

اصطلاحا : السرد والسردية في الاصطلاح" تتابع الحالات والتحولات في خطاب ما على نحو ينتج المعنى."وهذا المفهوم يتسع ليشمل كافة الخطابات المكتوبة والمروية، غير أن السرد سرعان ما تجاوز حدود المفاهيم النظرية ليصبح علما قائما بذاته.وعلم السرد حديث النشأة، حيث لم تظهر ملامحه الأولى إلا مع مطلع القرن الماضي على يد إخنباوم في مقالة له تحت عنوان "كيف صيغ معطف غوغول"، غير أن كلمتي السرد والسردية لم تأخذا بعدهما الاصطلاحي المعروف بين الدارسين إلا في حدود سنة 1969 على يد الناقد المشهور "تودورف." أما أهمية فلاديمير بروب فتتجلى في اكتشافه لتسلسل الوظائف السردية عندما انطلق في بحثه من مائة خرافة روسية، وذلك في حدود سنة 1925.

الرؤية السردية بعد ما وردَ تعريف السرد في اللغة العربية، لا بدّ من المرور بالرؤية السردية مرورًا تفصيليًّا؛ لأنها مرتبطة بالسرد ارتباطًا وثيقًا، حيث إنّ الرؤية السردية هي مفهوم نقدي يتناول الخطاب السردي أو يتناول الطريقة التي اتبعها الكاتب في سرد أحداث قصتِهِ أو روايتِهِ، فالرؤية السردية تُعنى بالمكونات الخاصّة بالنص المسرود من حيث الشخصيات والأحداث والحبكة الأساسية في النَّصّ وما شابه ذلك، وينقسم مفهوم الرؤية السردية النقدي إلى ثلاثة أقسام، وهي:

الرؤية من الخلف: ويمكن تعريف هذا القسم من الرؤية السردية على أنّه قدرة الكاتب أو السارد على معرفة مشاعر وأحاسيس شخصياتِهِ التي ابتكرها في نصّه، فهو العارف الوحيد بكلّ خفاياهم وهو الكاشف الوحيد لما يدور في خلجات نفوسهم. الرؤية المصاحبة أو الملازمة: يحضر في هذه الرؤية التساوي بين مقدار معرفة الكاتب للأحداث في النص ومقدار معرفة شخصياتِهِ التي ابتكرها للأحداث في النصِّ، فهو وشخصياتُه في المستوى نفسه من حيث معرفة أحداث القصة أو الرواية.

الرؤية من الخارج: أمّا في هذه الرؤيا فتكون معرفة الكاتب قليلة أمام معرفة شخصياتِهِ لأحداث النص، فبالرغم أنّه الكاتب إلّا أنّه أقل علمًا بالأحداث من الشخصيات التي ابتكرها.

بعد تعريف السرد وتعريف الرؤية السرديّة، لا بدّ من المرور على مكونات الخطاب السردي، ويتألّف الخطاب السردي أو النصّ السردي بشكلٍ عامّ من عدة مكونات ضرورية لكمال النص، وهذه المكونات هي:

السرد: وهو -كما وردَ سابقًا- الكيفية التي تُروى بها القصة أو هو الطريقة التي يُحكى بها النصّ السردي، وهي مختلفة بين كاتب وآخر وفقًا لعوامل عدّة، من بينها: زاوية رؤية الكاتب. حضور الكاتب في النص من خلال معجمه اللغوي الخاص، فتعدد الكتّاب في نصّ واحد سيحدث تعددًا في طريقة السرد في النص.

الشخصية الحكائية: وهي مكوّن رئيس من مكونات الخطاب السردي، فلا يمكن كتابة رواية دون شخصيات، فالشخصية هي محور كلّ عمل سردي، فالصلّة وثيقة جدًّا بين شخصيات النص السردي والحدث المقصود في النص السردي.

الفضاء الحكائي: وهو المكانُ الذي يختارُه السارد أو الكاتب لإجراء أحداث روايتِهِ أو قصّته فيه، وهو عنصر مهم جدًّا من عناصر الخطاب السردي، فتحديد المكان الذي قامت به أحداث النص السردي يجعل احتمال حدوث النصّ في الحقيقة كبيرًا جدًّا، فالمكان يُخرج النص من الحروف إلى الصورة العينيّة في ذهن القارئ عندما يفتح خياله لتصوّر أحداث النص في الفضاء الحكائي المحدد.

الزمن الحكائي: وهو الزمن الذي يختارُهُ الكاتب لتدور به أحداث قصتهِ وهو ضروري أيضًا لإتمام صورة الحدث في ذهن القارئ، فلا يمكن أن تدور أحداث قصة أو رواية دون ذكر زمن هذه الأحداث، ويجب أن يكون التسلسل الزمني بين الأحداث في النص منطقيًّا ومعقولًا.

تعريف الشخصية الروائية:

هي علامة ذات وجهين: أحدهما (دال) Signifiant والآخر (مدلول) Signifie (الشخصية) بمثابة (دال) عندما تتخذ عدة أسماء أو صفات تلخّص هويتها. أما (الشخصية) (كمدلول) فهي مجموع ما يُقال عنها بوساطة جمل متفرقة في النصّ أو بوساطة تصريحاتها وأقوالها وسلوكها.

أنواع الشخصيات:

تصنف الشخصية إلى سكونية ثابتة لا تتغير طوال السرد، وديناميكية تمتاز بالتغيير الدائم داخل السرد، ثم شخصية محورية (أو رئيسية)، وثانوية، وشخصية معقّدة ذات عمق سيكولوجي وهناك من صنّف الشخصيات الروائية إلى ثلاثة أنواع:

1. **الشخصيات المرجعية وضمنها الشخصيات** (التاريخية، والشخصيات الأسطورية، والشخصيات المجازية، والشخصيات الاجتماعية). وكل هذه الأنواع تميل إلى معنى ثابت يشارك القارئ في تشكيلها.

2. **الشخصيات الناطقة باسم المؤلف** وأكثر ما تعبر عن الرواة والأدباء والفنانين.

3. **الشخصيات المتكررة ذات الوظيفة التنظيمية** وهي التي تبشّر بالخير مثلا .

الاسم الشخصي:

هو الذي يحدد الشخصية ويجعلها معروفة، ويختزل صفاتها. ولهذا لا بد للشخصية من أن تحمل اسماً يميّزها، ويتوخّى الروائي أن تكون أسماء شخصياته متناسبة مع مسمّياتها، بحيث تحقق للنصّ احتماليته ومصداقيته، فلا يسمّي (الأمين) مثلاً بـ (الخائن)، ولا (الكذاب) بـ (الصادق) إلا إذا أراد (المفارقة) وهذه المقصدية التي تضبط اختيار المؤلف لاسم الشخصية لا تنفي اعتباطية العلامة، ذلك أن الاسم هو علامة لغوية، وليس هناك ما يجبر المؤلف على وضع أسماء شخصية لأبطاله، فقد يطلق عليها ألقاباً مهنية مثل: الأستاذ، والمعلم، والفلاح... أو يُعيّنهم بالقرابة مثل: الأب، والأم، والعم... أو ينسبهم إلى مواطنهم مثل السوري، والحلبي، والدمشقي، والحمصي... أو يطلق عليهم سمات وصفية تميزهم مثل: الشاويش، والكابيتان، والأمير، والشيخ، والتاجر.

أساليب تقديم الشخصيّة:

في تقديم الشخصية طريقتان: طريقة مباشرة، وذلك عن طريق الوصف الجسدي، والنفسي للشخصية، وطريقة غير مباشرة: حيث يمّدنا (الراوي) بالمعلومات حول الشخصية بالشكل الذي يقرره الروائي. وهنا تبرز هيمنة (الراوي) العليم في مجال السرد، ومهمته في أن يُرينا (الشخصية) التي يصنعها الروائي، وكأنما هي شخصية محتملة، وذلك عن طريق استخدام (ضمير الغائب) الذي رسّخته التقاليد الروائية حيث يسمح هذا الضمير للراوي باتخاذ مسافة مناسبة من الشخصية التي يقدمها، ولقد رسم الروائيون الشخصية الروائية بثلاثة أساليب هي:

1. **أسلوب تصويري**: يرسم الروائي فيه الشخصية من خلال حركتها وفعلها وصراعها مع ذاتها أو مع غيرها، راصداً نموها من خلال الوقائع والأحداث، حيث يعطي الاهتمام الأكبر للعالم الخارجي.

2. **أسلوب استبطاني:** يلجُ فيه الروائي العالم الداخلي للشخصية الروائية كما في روايات (تيار الوعي) التي تعود جذورها إلى كشوفات علم النفس الحديث، حيث تعتمد هذه الروايات على تقنية الاستبطان، والمناجاة، والمونولوج الداخلي للشخصية.

3. **أسلوب تقريري:** يقوم فيه الروائي بتقديم الشخصية الروائية من خلال وصف أحوالها وعواطفها وأفكارها، بحيث يحدد ملامحها العامة، ويقدم أفعالها بأسلوب الحكاية، ويعلق على الأحداث، ويحللها.

الزمن في الخطاب:

إذا كانت الأبحاث الروائية السابقة قد أهملت البحث عن (الزمن)، فإن الدراسات الحديثة قد عالجت هذا

الموضوع باستفاضة، لما له من أهمية في السرد ، ذلك أن (الزمن) هو الشخصية الرئيسة، وإذا كانت الشخصيات في هذه النصوص تنمو وتكبر، وتتحرك وتضطرب، ثم تشيخ وتهرم، لتولد شخصيات جديدة، فيموت (الفرد) ليستمرّ (النوع) الإنساني، فإن الزمن لا يشيخ ولا يهرم، بل يستمر مع كل الأجيال والأحقاب. ولقد ميّز جان ريكاردو في كتابه (قضايا الرواية الجديدة) 1967 بين زمن السرد، وزمن القصة. وقسّم الزمن في الخطاب الروائي إلى ثلاثة أزمنة هي: زمن المغامرة (عن أحداث وقعت في سنتين مثلاً)، وزمن كتابة هذه الأحداث (وليكن شهرين مثلاً)، وزمن القراءة (وليكن ساعتين مثلاً).

1. **(الأزمنة الخارجية)** وهي: (زمن السرد) وهو زمن تاريخي، و(زمن الكاتب) وهو الظروف التي كتب فيها الروائي، و(زمن القارئ) وهو زمن استقبال المسرود حيث تعيد القراءة بناء النصّ، وترتّب أحداثه وأشخاصه. وتختلف استجابة القارئ من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان...

2. **(الأزمنة الداخلية)** وتتمثل في: (زمن النصّ) وهو الزمن الدلالي الخاص بالعالَم التخييلي، ويتعلق بالفترة التي تجري فيها أحداث الرواية.

.أنساق الزمن:

1. **النسق الزمني الصاعد**، الذي تتتابع فيه الأحداث كما تتتابع الجمل على الورق، ويكثر في القصص الكلاسيكي الذي يبدأ بوضع البطل في إطار معين، ثم يأخذ بالحديث عنه، منذ نشأته، فصباه، فزواجه...

2. **النسق الزمني المتقطع**، حيث تتقطع فيه الأزمنة في سيرها الهابط من الحاضر إلى الماضي، أو الصاعد من الحاضر إلى المستقبل، فيبدأ الراوي باستعمال الزمن الهابط ثم لا يلبث أن يقطع الزمن الآنف الذكر، ليبدأ قصة جديدة.

3. **النسق الزمني الهابط**: الذي يعود فيه الراوي إلى ذكرياته في الماضي.

الإيقاع الزمني:

دراسة الإيقاع الزمني من خلال ثلاث تقنيات سردية هي: الخلاصة، والحذف (في تسريع السرد)، والاستراحة.

فـ (**الخلاصة)** Sommaire (ويسميها بعضهم: التلخيص، أو الإيجاز، أو المجمل)، تقوم بدور هام يتجلّى في المرور على فترات زمنية يرى المؤلف أنها غير جديرة باهتمام القارئ. فالوقائع التي يفترض أنها جرت في أشهر أو سنوات تختزل في أسطر أو صفحات، دون التعرض للتفاصيل، فالراوي يقصّ في بضعة أسطر ما مدّته أشهر أو سنوات دون أن يفصّل. فتجمع في سطر واحد ما مدته عشر سنوات "تزوج البطل، وأنجب، ودخل أبناؤه المدارس".

وأما **(القطع) L,ellipse** (ويسمى أيضاً: الحذف، والقفز، والإسقاط) فهو أن يلجأ الراوي إلى تجاوز بعض المراحل من القصة دون الإشارة إليها، مكتفياً بإخبارنا أن سنوات أو شهوراً قد مرّت من عمر شخصياته دون أن يفصّل أحداثها: فالزمن على مستوى الوقائع: طويل (سنوات أو شهور)، ولكنه على مستوى القول: صفر وقد يكون الحذف صريحاً يذكره

الراوي، أو ضمنياً لا يصرح به، وإنما يستدل عليه القارئ من خلال ثغرة في التسلسل الزمني فيقول و بعد مرور عشر سنوات مثلا.

وأما (**تعطيل السرد) فيتجلّى في: الاستراحة أما (الاستراحة) Passe** فهي (الوقفة) وهي نقيض الحذف. وتظهر في التوقف في مسار السرد، حيث يلجأ الراوي إلى (الوصف) الذي يقتضي انقطاع السيرورة الزمنية وتعطيل حركتها. فيظل زمن القصة يراوح في مكانه بانتظار فراغ الوصف من مهمته، حيث ينقطع سير الأحداث ويتوقف الراوي ليصف شيئاً أو مكاناً أو شخصاً.وليست هذه الوقفات الوصفية زائدة، بل لها أهداف سردية، يضيء السرد فيها الحدث القادم.